بلاغة الخطاب في الخطبة الغرّاء للإمام علي (عليه السلام)

م.د. آمنة احمد عباس
جامعة البصرة – كلية التربية للعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية
Email: amna.ahmed@uobasrah.edu.iq

الملخص:

الخطبة الغرّاء احدى خطب الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة ذلك الكتاب الذي حوى خطبه واسلوبه وافكاره وبلاغته الكلامية ومنطقه. فكان الإمام خير متكلم وأبلغ بليغ في خطبه جميعها في مراعاته للمقام ولأقدار عقول الناس. والخطبة الغراء دلّت على الأُفق الواسع للإمام إذ تطرق إلى أمور غيبية تخص خلق الإنسان وتكوينه فضلاً عن أنها أمور علمية يتحدث فيها عن خلق الإنسان. كما تجد فيها تحذيراً له من الدنيا والشيطان. وامتلأت بالمواعظ والحكم والتوجيه، ووجه الخطاب إلى العموم، ولم يخص به شخصاً معيناً. وكان فيها حسن الانتقال من موضوع إلى آخر، فهي من الخطب العجيبة كما تسمى. وتمّت دراستها بالاعتماد على علوم البلاغة المعروفة على ثلاث مطالب تناولت ما في الخطبة من جمل وتراكيب وصور ومظاهر بديعية ومعالجتها بالاعتماد على الدلالات السياقية.

الكلمات مفتاحية: (بلاغة التركيب، الدلالة السياقية للأساليب، الصور البيانية، مظاهر البديع).

The Eloquence of the Speech in the Ghara Sermon of Imam Ali (peace be upon him)

Lec. Dr. Amna Ahmed Abbas
University of Basrah – College of Education for Human Sciences – Department of Arabic
Email: amna.ahmed@uobasrah.edu.iq

Abstract:

The Ghara sermon is one of the sermons of Imam Ali (peace be upon him) in Nahj al-Balaghah that book that contained his sermons, style, ideas, verbal eloquence and logic. The Imam was the best speaker and eloquent in all his sermons in his observance of the event and the destinies of people's minds. The sermon indicated the broad horizon of the Imam, as he touched on metaphysical matters related to the creation and formation of man, as well as scientific matters in which he talks about the creation of man. You also find in it a warning to him against the world and the devil. It was filled with sermons, judgment and guidance, and the speech was addressed to the public, not specific to a specific person. It was a good transition from one topic to another, as it is one of the strange speeches as it is called. It was studied based on the well-known sciences of rhetoric on three

demands that dealt with the sentences, structures, images and manifestations of the sermon and treated them based on contextual connotations.
Keywords: (Syntactic rhetoric, The contextual significance of the styles, Graphic images Verbal improvements).

توطئة:-

الخطابة واحدة من الفنون الأدبية النثرية التي يعمد إليها الخطيب أو الأديب عندما يريد أن يبث موضوعاً ما أو يتحدث في قضية تخص أمور الناس بصورة عامة، وقد يكون الغرض منها دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً. ويخرج الخطيب في خطبته إلى نصح الرعية وإرشادهم إلى الصواب محاولة منه لإقناعهم برأيه فيأتيهم بأُسلوب أدبي يقترب من عقولهم ونفوسهم، أي يجب أن تكون الخطبة منسجمة وعقلية المخاطب وواقعه الاجتماعي الذي يعيشه، وعلى الخطيب أن يدرك مثل هذه الأمور في الخطبة إذ لابد أن يربط في خطبته بين المقام والمقال ويناسب بينهما ((لأن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها وإن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة... وكان من رأي البلاغيين أن لكلّ مقام مقال لأن صورة المقال تختلف في نظرة البلاغيين بحسب المقام، ما إذا يتطلب هذه الكلمة أو تلك وهذا الأُسلوب أو ذاك من أساليب الحقيقة أو المجاز والإخبار أو الاستفهام))[١].

وكان الإمام (عليه السلام) بليغاً حكيماً في التوفيق بين المقال والمقام في نثره كلّهِ فتراه يزاوج بين الألفاظ والمعاني مراعاة للمقام وهنا تكمن بلاغة الخطابة حين ((يتجه البليغ إلى مخاطبة العقل والفكر لخلق المعتقدات الجديدة))[٢]. ويأتي الجاحظ في مقدمة الذين نادوا بمراعاة المقام للمقال إذ يقول ((ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها، وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً ولكلّ حالة من ذلك مقاماً، يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات))[٣].

المطلب الأول: بلاغة التركيب (الجملة):- لكلِّ تركيبٍ خصائصه التي تشير إلى دلالات مختلفة، وبما أنّ كلّ تركيب يأتي ضمن سياق فتكون وظيفة السياق، استخلاص ما في ذلك التركيب من دلالات تتأتّى من ارتباط الكلمات فيما بينها، إذ أنّ الكلمة لا تعبر عن معنى إلا إذا ارتبطت بنسيجها اللفظي وهذا يجعلها خاضعة للسياق الذي تردّ فيه فهو الذي يحدد معانيها ودلالاتها

المختلفة عن معناها المعجمي. فيكون هو مفتاح الكشف عن المعنى المراد، وتكون الكلمة عنصراً جزئياً من هذا المعنى وعليه يكون السياق هو ((القوة التي تحرك))[٤] هذه التراكيب ليستخلص منها الدلالات المختفية وراءها. بمعنى أنّ السياق هو الذي يُظهر ما في التراكيب من دلالات اختفت وراء ألفاظه فيكسبها معانٍ جديدة غير معانيها فيما لو كانت خارج سياقها.

ولكلّ نصٍ شكل ومضمون يتحدان ويتفاعلان حتى يحققان فيه فاعلية التأثير في المتلقي من خلال التعبير عن معانٍ غير مباشرة مختبئة وراء ألفاظه وسياقاته التي تُعدّ القوة المحركة والمؤثرة في إبراز دلالاته الخفية فيكون ((النظم متأتياً من داخل التركيب لا من خارجه، فمهمة الدارس فيه الكشف عن الامتداد الداخلي لهذا النظم[بخيوطه المتشابكة كلِّها]، وأثره في خلق العلاقات بين المفردات))[٥]. فجمالية التركيب تكمن في حسن الانسجام بين عناصره في النص فضلاً عن مراعاة التركيب إلى الجوانب النحوية، إذ إنّ القيمة التعبيرية لأي نص مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعاني النحو التي تكسب النص قوة وتأثيراً أكبر مما لو جاء التركيب على وضعه الأصلي. إذ يشترك في النص الجانب الوظيفي والتركيبي معاً فيكتسب النص بهما إيقاعاً جمالياً وبُعداً دلالياً. وللتركيب داخل النص بعدان (وظيفي، ودلالي)، أما الوظيفي فهو الوظيفة التي تؤديها الكلمة داخل السياق أو الجملة وعلاقتها مع ما قبلها وما بعدها لتكتسب دلالة جديدة تُغني النص. فالكلمات المكونة للتركيب على هذا الأساس لا تؤدي مهمة وظيفية فقط بل لابد أن تكون لها مهمة دلالية ضمن السياق الواردة فيه والتي لا يمكن فصلها عنه، إذ لا يمكننا أن ((ندرك من اللغة غرضاً، ولا أن نفيد منها معنىً إلا إذا ارتبطت كلماتها بعضها ببعض...، وفي ضوء هذا الترابط وهذه الصلات تكمن المعاني والأفكار التي [تحويها] النصوص اللغوية، وتحفظها في بنائها الحي، تراثاً خالداً وفكراً حياً))[٦]. وعليه يكون استمتاع المتلقي لا ((لما تحمله الألفاظ من معانٍ أول ما تظهر من النص لأول وهلة، وإنما لما وراء ذلك من معانٍ ثانية هي التي تسعد النفس وتجذب إليها الطباع))[٧]. وهذا ما رأيناه في تعبيرات الخطبة وجملها.

فالنص النّهجي ليس تشكيلاً وتنسيقاً بين الألفاظ بقدر ما هو تنسيق بين العلاقات التي تربط هذه الألفاظ مع بعضها بعضاً لأنّ اللغة ((ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات))[٨] فلكلّ تركيب معناه ولكلّ أسلوب دلالته الخاصة به، والهدف من دراسة التركيب يتعلق بالمعنى

والمغزى الذي يرمي إليه التعبير ومن ثَم فإن التعبيرات والجمل والأساليب التي اعتمدها الإمام (ع) في خطبته المعنية بالدراسة كانت تحمل من الدلالات والإيحاءات الشيء الكثير. والذي كان ملفتاً للنظر هو ورود بعض الأساليب الإنشائية التي عبرت عن معانٍ وأوحت بدلالات فُهمت من السياق الذي وردت فيه وكانت متناغمة إلى حدّ ما مع الغرض الأساس للخطبة، فكلّ خطبة يحتاج فيها الخطيب إلى أُسلوب ينبه السامع ويشدّه إليه وأول هذه الأساليب هو أُسلوب الاستفهام فضلاً على الأُسلوب الأمري الذي جاء في بداية كلّ فقرة، ونلحظ الانزياح الوظيفي لهذا الأُسلوب الإنشائي في التحول من وظيفته الاستفهامية في طلب الحصول على الشيء إلى وظيفة أخرى تُفهم من السياق.

أولاً: الدلالة السياقية للأساليب التي اعتمدها الامام (عليه السلام) :ـ

١- الدلالة السياقية لأسلوب الاستفهام: من جمالية الاستفهام في الخطبة أنه لم يأتِ على حقيقته لطلب جواب، وإنما جيء به لغرض يقصده الخطيب، وبما أنّه من الذين يتميزون بفصاحة اللسان وبلاغة الكلام فلا يقول إلا جواهر تتلألأ في بحر اللغة الغامض. فكان يزاوج ويشاكل في التركيب الواحد بأكثر من أسلوب واحد. والاستفهام في الخطبة تحول من دلالته الحقيقية الطلبية إلى دلالات أخرى القصد منها تذكير أو تنبيه المخاطَب أو الاعتبار أو تقرير أو إنكار أو تخويف. و الخطبة كما معروف هي لنصح الرعية وإعطائهم العِبر والمواعظ ممن سبقهم، فكان (ع) يأمرهم بتقوى الله سبحانه وتعالى وحثهم على عبادته وترك الدنيا وزيفها ورونقها الزائل والتمسك بالعمل الصالح الذي ينفع العبد في الحياة الآخرة، ففي نص له ((أولِي الأبصَارِ والأسمَاعِ، والعَافِيَةِ والمَتَاعِ، هَل مِن مَنَاصٍ، أو خَلَاصٍ، أو مَعَاذٍ، أو مَلاذ...، أم لا، فَأنّى تُؤفَكونَ؟ أم أينَ تُصرَفُونَ؟ أم بِمَاذا تَغتَرُّونَ؟ وإنّمَا حَظُّ أحَدِكُم مِنَ الأرضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرضِ، قَيدُ قَدِّه))[٩]، بدأ النص بنداء حُذفِت أداته ثم لحقه استفهام لم يكن طلبياً، بل طُوِع ليُخرَج به إلى معانٍ تتبين من السياق الذي ترد فيه، ثم يأتيك بحرف العطف (أو) ليجعل المخاطَب يقف ويفكر فيما يقرأ أو يسمع.

فزاوج (عليه السلام) بين الألفاظ بما يخدم الغرض الذي سيق من أجله النص، وأغنى فكر المخاطَب بالمعاني والأفكار. والاستفهام في النص جاء لـ ((يقرر فكرة من أفكار يحمل المخاطَب على الإقرار بها، وبمعنى آخر السؤال نفسه جواب ثابت))[١٠] أي ليحمل المخاطب عن طريق الاستفهام . يقرّ بأنه ليس هناك مناص أو ملاذ حين تحين الساعة، ثم يعود ليستفهم ولكن بأداة

أخرى مستنكراً للفعل في (أنى تؤفكون) أي كيف تكذبون؟ وهنا يستنكر عليهم كذبهم ويربط الكلام بعضه ببعض في تركيب جميل ومؤثر فكأنّما هذا الاستفهام الإنكاري يُجيب به على كذبهم في الاستفهام الأول الذي يريد به إقرارهم بما يقول بأنّ لا مناصاً ولا ملاذاً تفرّون إليه فلا داعي للكذب، ولو جاء على هذه الصيغة لاختفت منه مسحة التأثير. فصياغته بهذا الأُسلوب الاستفهامي ليشرك المخاطَب فكراً وعاطفةً معه في الكلام، ولم يصل بعد إلى مرماه الأساس فيستأنف الكلام ليوجه إليهم استفهاماً. (أم أين تُصرفون؟) كتهديد وتخويف ووعيد لهم مع تقرير ثم يصل إلى مغزى كلامه الذي من أجله سيقت هذه التساؤلات كلّها، إذ بعد كلّ ذلك يا أولي الأبصار ليس لكم إلا حفرة القبر المحدد في الأرض الواسعة فاتعظوا واتقوا الله خالقكم في الحياة الدنيا لتصلح آخرتكم.

فالاستفهام كأنّه استفهام عن استفهام سابق له، فكأنما (أنى تؤفكون؟) استفهام لما سبقه، و(أين تصرفون؟) كذلك. ثم ترتبط تلك التساؤلات كلّها لتحمل معنىً واحداً وهو أخذ العبر والاتعاظ بعد الإقرار بالحقيقة التي لا مناص منها بأن مردكم إلى الله فاعملوا على إرضائه. فيتضح أنّ ((جمالية هذا الأسلوب إنّما تنبثق من شبكة العلاقات المعنوية بين الكلمات، وهي تؤسس سياقات ومقاصد يجتهد المتكلم في إيصالها إلى المخاط [من دون] حاجة إلى ردّ أو جواب))[١١]. وكان في الاستفهام ترهيب وترغيب للمخاطبين من خلال الوعيد والتخويف لهم ثم حملهم على التقرير بما يجب أن يقرّوا به بحيث لا ينفرون منه، ولكي يكون في كلامه شيء من البعد الجمالي الذي يقرب المخاطَب ويبعد عنه الملال في أثناء الاستماع أو القراءة فينوع الخطيب في الأُسلوب الذي يتكلم به. وبرزت جمالية الأُسلوب باعتماد الخطيب على الانزياح الوظيفي الدلالي فيحوله من وظيفته الطلبية إلى وظيفة أخرى يدلّ عليها السياق فقد تكون تحذيراً أو تنبيهاً أو اعتباراً مع تنوع أدوات الاستفهام وخلق التناسق والتناسب بينها وبين النص.

٢- التحول الوظيفي في الاستفهام بخروجه إلى معنى الخبر في (النفي، أو الإثبات): وهنا تتحول وظيفته من استفهامية إلى خبرية وذلك ليشرك بالاستفهام المخاطب في الكلام، أما إذا كان الاستفهام على وجه الإخبار لكان مجرد نقل للأخبار وحديثاً عابراً للكلام، أما في الأُسلوب الطلبي نجد المتكلم يشرك المخاطب معه في الكلام ويبحث في ذلك السؤال فتكون العبرة ((من هذا الاستخدام إنما في التركيب الذي يجسد أمراً غير حاصل وقت الطلب بأُسلوب الاستفهام. ولهذا

يصبح التركيب كالكلمة الواحدة، ما يكسبه جمالاً وبلاغة موحية))[١٢] وبذلك يتحقق فيه الانزياح عن وظيفته الأصلية بالتحول من غرض تقليدي معروف إلى غرض آخر* الغرض منه إثبات الخبر أو نفيه مع دلالة السياق على تعجب أو استنكار أو تقرير. فانظر إلى النص الذي يقول فيه ((فَهَل يَنتَظِرُ أهلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابَ إلاَّ حَوَانِيَ الهَرَمِ، وأهلُ غَضَارَةِ الصَّحَّةِ إلاَّ نَوَازِلَ السَّقَمِ، وأهلُ مُدَّةِ البَقَاءِ إلاَّ أوِنَةَ الفَنَاءِ... وَتَلَفُّتِ الاستِغَاثَة بنُصرَةِ الحَفَدَةِ... فَهَل دَفَعَتِ الأقَرِبُ؟ أو نَفَعَتِ النَّواحِبُ؟ وقد غُودِرَ في مَحَلَّةِ الأمواتِ رَهِيناً وفي ضِيق المَضجَعِ وحيداً))[١٣] فـ ((هل حملت دلالة النفي، إلا أن السياق له دلالة أخرى إذ إنّ النفي بـ "هل" ليس نفياً محضاً بل هو أُشرب معنى النفي، فقد يكون مع النفي تعجب أو استنكار، أو غير ذلك من المعاني))[١٤]، فـ "هل" في النص كانت نافية أي (ما ينتظر أهل بضاضة الشباب...) إلا أنّ السياق يدلّ على الاستنكار ((فالنفي بطريقة الاستفهام ليس نفياً محضاً بل [دخلت معه] معانٍ أُخَر لا يؤديها النفي المحض. [إذ] النفي الصريح إنما هو إقرار من المخبر [فإذا قال ما ينتظر أهل...] كان هذا إخبار من المتكلم، أما إذا قال ذلك بالاستفهام كان القصد إشراك المخاطب بالأمر))[١٥] فهو يريد الردّ منه تحديداً بـ (لا ليس ينتظر...) فالنفي ابتداءً ((يفيد أن المتكلم يقول الأمر من نفسه، وأما الاستفهام فإنَّه يدع ذلك للمخاطب ليقوله))[١٦].

وقد يخرج الاستفهام إلى معنى الخبر لإثبات أمرٍ وتقريره كما في النص ((أ وَلَستُم أبنَاءَ القَومِ وَ الآبَاءَ...))[١٧]. ففي الأسلوب الطلبي إشراك المخاطب في الأمر ((ليقرره المخاطب بنفسه فبدل أن يقول المتكلم إبتداء يكون المخاطب مشاركاً في اصدار الحكم))[١٨]. فخرج الاستفهام إلى النفي ودلّ على الاستنكار، وإلى الإثبات ودلّ على التقرير من خلال السياق وهذه معانٍ خبرية بأسلوب طلبي. ففي السؤال تجد أمور عدّة منها:-

١- إشراك المخاطب في الأمر ليقره بالإيجاب أو السلب بحسب المعنى وبهذا يتفاعل المخاطب مع الخطبة ويعيش أجواءها.

٢- الأُسلوب غير المباشر يجعلك تبحث وتتعمق حتى تصل إلى الغاية. أي يشغل الفكر والعاطفة معاً، وهنا تكمن جماليته التي تنعكس على النص إذ التركيب في نهج البلاغة كان ((مخاطباً حواس الإنسان وعقله))[١٩].

ويبقى للاستفهام دوره وأثره في الكلام أقوى وأكثر تحريكاً للإحساس واشغالاً للفكر مما لو جاء بالنفي والإثبات المباشر لأن في الاستفهام إيقاظاً للأذهان وشدّاً للانتباه وكأنه أداة تنبيه أو تذكير أو تحذير للمخاطب. ولهذا اعتمد الإمام (ع) على هذا الأسلوب الحامل لتلك الدلالات المرتشفة من السياق العام الذي يرد فيه الاستفهام، لأنه يعمل على ((شدّ الخطاب وتقليص المسافة بين المخاطب والمخاطَب، فضلاً عن البعد التنغيمي الذي يثير المخاطَب ويحمله على التفاعل مع المعنى الملقى ومع الالتفات إلى أن تحطيم المستقر من المعرفة، وتهيج الراكد منها مقصد مهم))[٢٠] كما نجد فيه تثبيتاً للمعنى.

٣- الدلالة السياقية للأسلوب الأمري: اعتمد الإمام (ع) على هذا الأُسلوب في توجيه الكلام للمخاطبين بالاعتماد على الترهيب والترغيب إذ تجده لا يأمرهم بالقوة وإنما يوجه إليهم الأمر بالترهيب مرة والترغيب مرة أخرى في النص الواحد كقوله: ((فَاتَّقُوا الله تَقِيَّةَ مَن سَمِعَ فَخَشَعَ واقتَرَفَ فَاعتَرَفَ وَوجِلَ فَعَمِلَ وحَاذَرَ فَبَادَرَ.... واستَظهَرَ زَاداً ليومِ رَحيلِهِ وَوَجهِ سبَيلِهِ))[٢١] فترى الأُسلوب الأمري خرج للنصح والإرشاد مع الترغيب أي اتقوا الله تقية الخاشع المعترف المبادر. ومثله ((فاتَّقوا الله عِبَادَ الله تَقِيَّةَ ذي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلبَهُ، وأنصَبَ الخَوفُ بَدَنَهُ... بِفَرحَةِ البُشرَى ورَاحَةِ النُّعمَى... فَكَفَى بالجَنةِ ثواباً ونوالاً. وكَفَى بالنارِ عِقَاباً وَوَبَالاً))[٢٢] وفيها نصح وإرشاد مع الترغيب والترهيب فالذي يتقِ الله بهذا الشكل يكون ثوابه الجنة وما عداه ينال النار. ويعود إليهم بأسلوب أمري فيه شيء من الشدة والرهبة والتهديد والتحذير إذ يقول ((فأَتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ جِهَةَ ما خَلَقَكُم لَهُ واحذَرُوا مِنهُ كُنهَ ما حَذَّرَكُم مِن نَفسِهِ...))[٢٣] وهنا يحذرهم من غضب الله وشدته وقوته، ويعود في نص آخر ليحذرهم قائلاً ((أُوصِيكُم بِتَقوَى اللهِ الذي أعذَرَ بِمَا أ نذَرَ، واحتَجَّ بِمَا نَهَجَ))[٢٤] فهنا يحذرهم من عدّو الله والإنسان وهو الشيطان.

وعليه يكون الترهيب والترغيب هو الأساس الذي اعتمد عليه الإمام (ع) في خطبته وكان للأمر فيه دور إيجابي كأنما به يوقظ أذهانهم بفعل الأمر الذي يأتي به في النص ومن ثمّ يشدّ انتباههم له ويوجه أنظارهم إلى ما يريد قوله والتعبير عنه من معانٍ ودلالات خرج إليها الأُسلوب الأمري كتحذير أو تنبيه أو تخويف.

٤- الدلالة السياقية في الأسلوب الخبري (خروجه إلى معانٍ إنشائية): أحياناً ترى الخبر يخرج إلى الإنشاء أي الصياغة خبرية والمعنى إنشائي فتؤدي الجملة وظيفة من وظائف الأساليب الإنشائية، وقد خرج الخبر إلى معنى الأمر والغرض منه التذكير فهذا الغرض هو الذي أوجب مجيء الصيغة على جهة الخبر فيقول (عليه السلام) في هذا النص ((أوصِيكُم عِبَادَ اللهِ بتِقوى اللهِ الذي ضَرَبَ لكُم الأمثالَ...))[٢٥] فجاء بفعل الأمر "أوصيكم" الذي حمل معنى النصح والإرشاد ثم تلاه بالخبر الذي حمل معنى الأمر "بتقوى الله" أي اتقوا الله إذ إنّ الكلام جاء في اللفظ خبرياً وفي المعنى أمرياً أي أمرهم بتقوى الله والغرض منه للتذكير بنعمته سبحانه وتعالى. وبهذا التنوع الأُسلوبي الذي اعتمده الإمام في خطبته دلالة على اعتماده الترهيب والترغيب في توجيه الكلام للناس إذ إنّ التنسيق في تأليف الكلام من أهم العوامل المؤثرة نفسياً وفكرياً في المتلقي.

ويأتي الأُسلوب الخبري في الخطبة عن طريق الإخبار المباشر بالوصف فيأتي حاملاً للدلالة الحقيقية ومعبراً عن أمور وحقائق مسلّم بها فتتحقق ((فاعلية اللغة الحقيقية وأثرها في تحقيق الشعرية عن طريق الأساليب الإخبارية))[٢٦]. إذ يلاحظ أن الاخبار التي سيقت في الخطبة كانت تعبر عن حقائق مسلّم بها، والسبب من أنّ الإمام كان يسوقها في الخطبة لغرض تنبيه المخاطَب أو تحذيره أو تخويفه ليتعظ ويأخذ العِبر. ففي حديثه عن قضية خلق الإنسان إذ يقول ((أم هذا الذي أنشَأهُ في ظُلُمَاتِ الأرحَامِ ، وَشُغُفِ الأستَارِ نُطفَةً دِهَاقاً، وَعَلَقَةً مُحَاقاً، وجنيناً وَرَاضِعاً،... كَادِحَاً سَعياً لِدُنيَاهُ... فَمَاتَ في فِتنَتِهِ غَرِيراً، وَعَاشَ في هَفوَتِهِ يَسِيراً...))[٢٧] فيبدأ بذكر خلق الإنسان منذ كان نطفة إلى أن اشتدّ عوده فنسي ذكر الله، وهو بهذا يذكرهم وينبههم ثم يبث الخوف في نفوسهم عند انشغالهم بالدنيا، وفيها تحذير وتنبيه على أن لا تكن عبداً للدنيا أيها المخلوق. فقد اشتركت هذه الأمور كلّها في النص الذي صيغ صياغة خبرية ليدل أولاً على فكر الإمام (ع) وإدراكه للأمور ومعالجتها إذ يبدأ بالتذكير ثم يتحول إلى التنبيه ثم يعود إلى التخويف.

وهذا الأُسلوب الذي اعتمده (عليه السلام) في بث أخباره للمخاطبين ليتعظوا ويأخذوا العبر في نهاية الأمر، فهو في نهاية كلّ فقرة يذكرهم بالآخرة وحسابها ويصف أهوالها ويوضح نهايتهم بالموت الحتمي، ومن ثمّ الثواب والعقاب بعد الحساب ففيها شيء من الترهيب والترغيب وهو متلائم

مع هدف الخطبة. وربما يسأل سائل إذا كانت هذه حقائق مسلّماً بها فلماذا يذكرها؟ السبب في ذلك للتنبيه والتحذير وأخذ العِبر والمواعظ.

ورود المؤكدات في الأخبار: وذلك لبث البعد الجمالي في النص، والنفسي في المتلقي فتراه (عليه السلام) يورد الأخبار بمؤكدات، وذلك لـ ((بث الفكرة وتقويتها، وإثارة اهتمام النفوس بها))[٢٨] وهذا نجده عندما يتحدث عن الدنيا إذ يقول ((إنّ الُّدنياَ رنِقٌ مَشرَبُهَا، رَدِغٌ مَشرَعُهَا...))[٢٩]. وأحيانا تراه يؤكد، وذلك عندما ((يكون المخاطَب فيه غير متردد ولكنه يجعل في صياغة الكلام كأنه متردد لأن الكلام السابق فيه ما يثير تساؤلاً حتى كأن النفس اليقظة والفهم المتسارع يكاد يلتفت إليه))[٣٠] وهذا نجده في النص التالي ((أوصِيكُم عِبادَ اللهِ بتَقوى اللهِ الذي ضَرَبَ لكُم الأمثَالَ ... ووظَّفَ لكُ مُدداً في قَرَار خِبرةٍ ودَارِ عِبرةٍ أنتُم مُختبَرُونَ فيها ،ومُحَاسَبُونَ عَليِها))[٣١] فجاء بضمير الوصل (الذي) العائد على لفظ الجلالة ليؤكد لهم أنه يريدهم أن يتقوه هو وليس غيره ويعبدونه هو لا الدنيا، ثم يعود ليؤكد بـ (أنتم) أي أنتم المخلوقون في هذه الدنيا للاختبار والمحاسبة على أعمالكم. فكأنما المخاطَب سأله من هو صاحب تلك النعم كلّها؟ ليجيب بـ (الذي)، ومن هم المختبرون في الدنيا ليجيب بـ (أنتم). فيتضح مما تقدم أن الأخبار التي ساقها الإمام كانت أخبار مسلّماً بها وإنما جيء بها في الخطبة لأمور منها للتنبه أو للتحذير أو لأخذ العبر والمواعظ، أما دور المؤكدات في هذه الحقائق المسلّم بها فهو لتأكيد الكلام وتقوية لمضمونه. فالإتيان بالخبر ليس القصد منه فائدة الخبر أو لازمته وإنما القصد منه معانٍ أُخَر يخرج إليها الخبر ويقصد المتكلم أن يوصلها إلى المخاطب بطريقة فيها نوع من الرقيّ اللفظي الذي ينعكس فيما بعد على المخاطب في مخاطبة مشاعره وتحريك عقله.

فيبدو أن للأسلوب الخبري والإنشائي أثراً في التركيب من خلال وظيفتهما التي تكمن في الإثارة والإقناع فضلاً عن الإبلاغ ونقل الأفكار، وهذا ما لاحظناه في الأساليب التي اعتمدتها الخطبة فالتراكيب بما تحويه من أساليب أعطت للخطبة مسحة جمالية وإبداعية اتضحت في نظم الألفاظ وتركيبها وتآلفها وانسجامها فتركت التراكيب أبعاداً في النص:-

١- الترهيب والترغيب في الخبر والإنشاء والجمع بينهما.

٢- شدّ الخطاب وتقليص المسافة بين المخاطب والمخاطَب وتثبيت المعنى.

٣- تحريك الحواس واشغال العقل بما يقال.

المطلب الثاني: الصور البيانية، أنواعها ودلالاتها السياقية في الخطبة:- لم تأتِ الصور في الخطبة لعقد مقارنة أو مشابهة بين شيئين فقط، بل كان لها بعد دلالي إذ من خلال العلاقات بين الأشياء تحولت الصور المرسومة في الخطبة إلى معانٍ مكتوبة تُفهم بالنظر والتأمل ويستدل على ما فيها من ملامح ومعانٍ وأفكار تغني فكر المتلقي بما تحمله ليس فقط من جانب فني بل ونفسي أيضاً. فتأتي الصور البيانية في الخطبة لتترك أبعاداً في النص الذي تردّ فيه بصورة خاصة وفي الخطبة بصورة عامة، ومن ثمّ لتترك أثرها في المتلقي. فالمعروف بأَنَّ الخطبة تُلقى على جمع من الناس ولها هدف يقصده الخطيب، وعليه تكون هناك علاقة بين الخطيب والناس يمكن أن تكون علاقة اجتماعية. إذ يرتبط الخطيب بواقعه الاجتماعي عن طريق لغته ودورها الإقناع من خلال براعة الخطيب في توظيف اللغة بما يخدم الخطبة والجمهور الذي تُلقى عليه الخطبة، لأنّ ((اللغة لا تنفصل عن طابعها الاجتماعي ودورها التواصلي كمكان لالتقاء المتحاورين واجتماع المتخاطبين وطريقة مثلى لتبادل الآراء وانسجامها، وقبولها واستساغة مبرراتها وحجمها))[٣٢] وخير طريقة للإقناع هي طريقة الجمع بين الأشياء المتناقضة أو المتشابهة لتقوية العلاقة بينهما وإيصال المعنى إلى المتلقي بطريقة أكثر تشويقاً وفيها شيء من الأدلة التي تحمل المتلقي على أن يقتنع بما يُقال ويستقبله من دون أن يسخط منه، فمن خلال ذلك الربط بين المتشابهات. كما في الاستعارة والتشبيه وإلخ من ألوان البيان. نجد في الكلام قوة مع الوضوح بورود الأدلة المقنعة للمتلقي فيستقبل الكلام بشيء من الرضا والارتياح فيمكن أن تُعتبر ألوان البيان ((ترجمة طبيعية للحوار الإنساني الذي تمثل اللغة الطبيعية المجال الحيوي لتجليّه))[٣٣]، وعليه اللغة تعدّ ((العتبة المناسبة لمراقبة الحياة ورصد الواقع ومساءلة المشكلات واستنطاق الوجود))[٣٤].

أولاً: وظائف الصور البيانية في الخطبة:- وراء تلك الصور أبعاد في النص الذي تردّ فيه والذي يبدو إنّ الإمام قد ساق هذه الصور في الخطبة لغرض يخدم النص والخطبة أولاً وأخيراً ومن تلك المهمات:-

١- مهمة وظيفية للإقناع، لأنّ ((الخطيب يسعى إلى الحصول على رضا مستمعيه ودفعهم... ويتحقق الإقناع بقوة الحجة والقدرة على استنهاض السامع واستمالته بالطريقين العقلاني أو الوجداني أو بهما معاً))[٣٥].

٢- وسيلة لفهم الخطاب الموجه إلى المتلقي وفيه شيء من التشويق وحمله على قبوله بشيء من الحب والرضا قبل الوصول إلى الحقيقة.

٣- للتأثير في المتلقي من خلال الإيجاز بالأمثال، لأن الكلام يكون فيه أكثر تركيزاً وأغنى بالمعنى.

٤- لتشخيص بعض الأمور كما في الاستعارة لإضفاء الحركة والصوت.

٥- تجلية المعنى وتقريبه للمتلقي بعقد العلاقة بين المتشابهات أو المتناقضات.

والصور في الخطبة ظهرت على ثلاثة أشكال:-

١- **الصور ذوات الحركة العينية المرئية:** لوحظ فيها توظيف بعض الألفاظ لسبب مقصود من قبل المتكلم كأن يكون:

أ- **لتجسيد المعاني مما يدلّ على تفاعل الألفاظ داخل النص:** فتظهر في الصور الحركة ويتجسد المعنى وتبتعد عن الصمت والسكون، وهي بهذه الحركة تتماشى مع غرض الخطبة وهدفها ففي النص التالي ((أوصِيكم عِبَادَ اللهِ... وَوَقَّتَ لكُم الآجَالَ، وألبَسَكُم الرِّياشَ))[٣٦] شيء من الوقفة والتأمل إذ إنَّ ((الرياش ما ظهر من اللباس ووجه النعمة فيه أنه ساتر للعورة... وقد يراد بالرياش الخصب والغنى))[٣٧]، فالصورة الاستعارية جسدت المعنى، فالنعمة ظهرت عليهم ولوضوحها كأنها شيء يُلبس وكأن شخصاً آخر يُلبسك إياها وليس أنت السبب فيها ولهذا جاءت الصورة الاستعارية لتوضح المعنى وتقربه للمتلقي بأن النعمة من الله أولاً وأخيراً وواضحة على مظهرك الخارجي قبل الداخلي، واتضح للمتلقي من خلال اعتماد الاستعارة على ((استبدال كلمة بأخرى أو استبدال اسم لشيء باسم شيء آخر))[٣٨] فتجد الحركة في الصورة دلالة على التفاعل بين الألفاظ إذ ينتج المعنى الجديد في الاستعارة نتيجة التفاعل بين الألفاظ داخل السياق الواردة فيه أركان الاستعارة وهذا يعني ((أنه في سياق كلام محدد مُعطى تأخذ الكلمة التي تُعد محوراً معنىً جديداً))[٣٩].

ب- لبث الحماس والتنافس في نفس المتلقي: ففي نص يقول فيه ((خُلُّوا لِمِضمَارِ الجِيَادِ))[٤٠] فالصورة تحمل دلالة على بث الحماس والتنافس بين الناس لكي يتسابقوا في الدنيا على عمل الخير كتسابق الجياد في المكان الذي تُضمر فيه. فدلّت الصورة الحركية المرئية على الحماس والتنافس والسعي لكسب الخيرات وجعلت في النص شيئاً من الحركة والحيوية والحياة وتلاءمت مع غرض الخطبة إذ الهدف من الخطبة الحث على العمل والنصح والإرشاد للرعية وهي بهذا تماشت مع غرضها.

ج- وأحياناً الحركة في الصورة لقصد شدّ انتباه المتلقي لحركة لا يراها إلا إذا شُبهت بما هو مرئي: كما في نص له (عليه السلام) يتحدث فيه عن الدنيا وأوصافها إذ يشبهها بالسناد المائل والظل الزائل في الميلان والزوال يقول فيها ((إنَّ الدُّنيا... غُرُورٌ حَائِلٌ، وظِلٌّ زَائِلٌ، وسِنَادٌ مائلٌ))[٤١] ففيها دلالة على انتفاء نفعها للناس إذا ما ساروا وراءها، لأنها إذا أعطتهم ما أرادوا وأعزّتهم بغرورها ومفاتنها سرعان ما تذلهم بعد العزّة التي أغرتهم بها. ومن خلال تلك الصور بُثت الحركة في النص لشدّ انتباه السامع.

٢- الصور ذوات الحركة المتخيلة: وفيها المتكلّم لا يُفصّل بل يوجز ويترك المجال للمخاطَب ليتخيل الصورة ويعيش أجواءها ويحس بما فيها من فرح أو حزن أو خوف أو تهويل بحسب السياق الواردة فيه. فتأتي الصور متخيلة لأسباب منها:

أ- **للتهويل والتخويف:** كما في قوله (ع) ((وألّجَمَ العَرَقُ))[٤٢] فالهدف من اللفظة المستعارة لتهويل يوم القيامة وبث الخوف في النفس. فتظهر الصورة وكأنك تتخيل العرق وكثرته وغزارته وكأنه يعلو أفواههم ويغطيها ويمنعهم من الكلام ويصبح كاللجام عليها، فيتخيل المتلقي صورة اللجام وهيأته وكيفية مشاكلته مع كثرة العرق وعلوه فيعيش أجواء الصورة من الخوف والتهويل التي دلّت عليها وذلك كلّه بثته لفظة اللجام في النص وما تخيله المتلقي كلّه لم يذكره المتكلم، فيكون المتلقي ((بين دلالتين، دلالة حرفية غير مقصودة ولكنها مدعاة تمنعها القرائن، ولا يمكن أن تتحقق إلا في الخيال، ودلالة أخرى منتجة يطلب من المتلقي استنتاجها بناء على تلك القرائن))[٤٣].

ب- ليبث متعة الإحساس في النص وذلك بالجمع بين الأشياء المتباعدة في الصورة: فتجد متعة الإحساس في الصورة من خلال الجمع بين الأشياء المتباعدة كما في قوله (عليه السلام) ((أَحَاطَ بكُم الإحصَاءِ))[٤٤] أي أن أعمالكم أحاطت بكم وأصبحت كالسور حولكم تحيط بكم كما يحيط السور بما فيه فانقلبت الصورة إذ بعد أن كانت أعمالهم بداخلهم وهم المسؤولون عنها أصبحوا هم بداخلها وأصبحت كسورٍ محيط بهم فتظهر ((مداخلة المستعار له، والمستعار منه، والتفاعل الناجم عن اتحادهما هو الذي حقق معنى المبالغة))[٤٥].

٣- الصور الوصفية المثلية: وفيها وصف وعرض للأحداث والأمور التي تخص الإنسان. فتصف حال الإنسان في الحياة الدنيا بحال المثل الوارد في النص. إذ لوحظ في الخطبة ورود بعض الأمثال وتوظيفها بما يخدم النص، إذ إنّ الأمثال سيقت في الخطبة لتدل على قدرة الخطيب في توظيف العبارات بما يخدم الغرض، وفصاحته فضلاً عن عقليته المتميزة بقدرته على التوفيق بين المثل والغرض الذي سيق من أجله، لأن في الأمثال اعتباراً مع حسن الإيجاز فضلاً عن الربط بين الماضي والحاضر، لأن المثل قيل في السابق ويأتي ليكون بمثابة دليل على ما يقال في وقت وروده في الكلام. ففيه بُعد فني واجتماعي إذ به يكتسب النص شيئاً من التشويق والإيجاز فيأتي حاملاً للدلالات ومعبراً عن المراد بأقل كلام وأكثر تركيز. وتتميز الأمثال بسمات منها:-

أ- الإيجاز والاختصار وهذا يعمل على اشباع المعنى.

ب- اعتماد الأمثال على عنصر المشابهة إذ لابد من وجود ((علاقة تجمع الاسم أو الكلمة الموظفة، مع الكلمة المستبعدة، غير الموظفة، وعبر تلك العلاقة يتم استخلاص المعنى الثاوي في ذاك التشكل الشديد التكثيف))[٤٦]. والأمثال في الخطبة كلها كانت حِكم قالها الإمام علي (عليه السلام) الهدف منها أخذ العِبر والمواعظ.

وسبب ورود المثل في الخطبة يعود إلى:

١- لبيان حكمة الله وكرمه ورحمته كما في قوله (عليه السلام) في هذا النص ((قد أُمهِلُوا في طَلَبِ المَخرَجِ ... وعُمِّروا مَهَلَ المُستَعتَب))[٤٧]، فالمستعتب ((هو المسترضي ويقال أيضاً استعتبه أناله العتبى وهي الرضا إنما ضرب المثل بمهل المستعتب لأنك إذا استرضيت شخصاً وطلبت منه أن يرضى لا ترهقه في المطالبة بل تفسح له المجال حتى يرضى بقلبه لا بلسانه أي أن الله فسح

لهم الآجال حتى يتمكنوا من إرضائه، واتوا من العمر مهلة من ينال العتبى أي الرضا لو أحسن العمل))[٤٨] أمد الله في أعمارهم كما المدة التي تعطيها للشخص الذي تطلب رضاه إذ انقلبت الصورة، فالله هو الذي أمد بأعمارهم في سبيل إرضائه بالعمل الصالح، ففي المثل طول المدة تعطى للذي يُطلَب منه الرضا وفي النص طول المدة تعطى للذي يطلب الرضا. وعموماً فإنّ

المشبه طول فترة الحياة (مدة عمر الإنسان)، طالب الرضا

المشبه به المستعتب (الذي يُطلب منه الرضا)

ووجه الشبه (طول المدة في كليهما وصولاً إلى كسب الرضا) .

وإنما ضُرِب المثل ليُبين حكمة الله وكرمه ورحمته ورأفته بالعباد، ووُظِفت لفظة (المستعتب) في المثل لما فيها من دلالة على أنّ المدة المتروكة للإنسان – لكي يصلح أعماله – مفتوحة كما هي في المستعتب.

٢- حمل المثل الصفات الإيجابية التي ينتفع بها الناس كالتروي والتأني إذ يقول (ع) في نص آخر ((وَرَوِيةِ الإرتِيَادِ وأنَاةِ المُقتَبَسِ المُرتَادِ في مُدَّةِ الأجَلِ ومُضطَرَبِ المَهَلِ))[٤٩] فالروية ((إعمال الفكر في الأمر ليأتي على أسلم وجوهه، والارتياد، طلب ما يراد، الأناة: الانتظار. المقتبس المرتاد: الذي أخذ بيده مصباحاً ليرتاد على ضوئه شيئاً غاب عنه، ومثل هذا يتأنى في حركته خوف أن يطفأ مصباحه وخشية أن يفوته في بعض خطواته ما يفتش عليه لو أسرع))[٥٠]. فمثلما حامل المصباح يتأنى في المشي خوفاً أن ينطفئ المصباح أو أن يفوته في بعض خطواته شيء يفتش عنه يكون الإنسان في الحياة عليه أن يفكر ويتأنى. فالعلاقة بين المصباح والفكر واضحة بأن كليهما يدلان على النور والسير بخطى سليمة بعيدة عن التخبط، ففيها شيء من الإرشاد والتوجيه في إعمال الفكر ودعوة إلى التروي وعدم العجلة. فهنا شبه حال الناس في الحياة الدنيا بحال ((الذي يأخذ بيده مصباحاً ليرتاد على ضوئه شيئاً غاب عنه))[٥١] وهنا حمل دلالة البحث عما مفقود. فالتأني والخشية والبحث عما مفقود فيها حث ونصح وتوجيه. فما علاقة المصباح في ذلك؟ رُبط بالعقل من خلال روية الارتياد والتأني في التفكير، إذ المصباح يحمل دلالة الإضاءة،

والفكر (العقل) يحمل دلالة التبصر والانفتاح وكلاهما يقودان إلى النور، وفي السياق دلالة على التأني في الحركة وعدم العجلة في الأمور.

الأمثال في الخطبة كملت بعضها بعضاً إذ دلت كلّها على بؤرة رئيسة تمركزت حولها وهي التفكير والتأني في الأمور، كما أن دلت كلّها على الحث والتوجيه والإرشاد. وأنها حملت الصفات الإيجابية التي ينتفع بها الناس كالتروي في التفكير وإعمال الفكر، كما كان للدين أثر في الخطبة عكسته الأمثال تبين في الحث على الطاعة والالتزام والتأني والخوف من الله وهي أمور كلّها ترتبط بالدين وهذا يعكس أثر الدين الإسلامي في الخطبة بشكل واضح لأن الخطيب غني عن التعريف من هذا الجانب.

ثانياً: تضافر الصور وتقابلها:- تتضافر الصور مع بعضها الآخر فيتفاعل النص بذلك أدبياً ومن ثمّ يتفاعل المخاطَب مع النص، إذ تتداخل الصور البيانية مع بعضها وتترابط إلى درجة التفاعل مع بعض وصعوبة القدرة على تمييز بعضها عن بعض إذ كلّ صورة تؤدي إلى التي بعدها ولا تنفصل عنها، فلا تكتمل الصور إلا بتسلسلها وتدرجها ولو حاولت ورفعت إحدى الصور عن مكانها لأختل النص ومعناه وهذا يدل على أن الصور عامة تعتمد السياق الذي تردّ فيه، إذ به تُكتشف دلالاتها الخفية وتظهر المتعة الفنية. ففي نص له يقول فيه (عليه السلام) ((قائِدةٌ لَهُ إلى ضَنَكِ المَضجعِ... لاتُقلِعُ المَنِيَّةُ اختِرَاماً ولا يَرعَوِي البَاقُون اجتِرَاماً، يَحتَذُونَ أمثالاً، ويَمضُونَ أرسَالاً))[٥٢] فتلحظ تقابل الصور في هذا النص مما يدل على استمرارية الحدث، فانظر إلى المنية التي شُخصت وأصبحت كالشخص الذي لا يكف عن استئصال الأحياء فهل المنية هي التي تقبض الروح؟ تقابلها صورة الإنسان الذي لا يكف عن اقتراف السيئات.

ثم يأتي ليصور حال هؤلاء الذين يقتدون بغيرهم ويحتذون بهم في اقتراف السيئات حالهم يشبه حال القطيع من الإبل والغنم والخيل، إذ يشبههم بحال الحيوان لقلة العقل في كليهما، لأن الذي يسير ويقلد ولا يفكر شأنه شأن الحيوان في ذلك. ففي الصورة دلالة على قلة العقل لهؤلاء. وإذا أكملنا النص ((حتَّى إذا تَصَّرمَتِ الأمُورُ وتقَضَّتِ الدَّهُورُ... أخرَجَهُم...، سِرَاعاً إلى أمرِهِ، مُهطِعِينَ إلى مَعَادِهِ رَعِيلاً صُمُوتاً قِياماً))[٥٣] فهنا الصور تتحد وتتفاعل مع بعضها حتى يحمل بها النص دلالة واحدة وهي أن يوم النشور والحساب آتٍ وأنكم أيها الناس مرجعكم إلى خالقكم فصور الإمام حالهم

في ذلك اليوم بحال القطعة من الخيل إذ ((شبههم في تلاحق بعضهم ببعض برعيل الخيل أي الجملة القليلة منها، لأن الإسراع لا يدع أحداً منهم ينفرد عن الآخر فإن الإنفراد من الإبطاء، ولا يدعهم يجتمعون جماً فإن التضام والالتفاف إنما يكون من الإطمئنان))[٥٤] فمن وراء ذلك التشبيه رمز الإمام إلى أنهم يأتون يوم القيامة لا أفراداً ولا جماعات وإنما يأتون بشكل يلاحق بعضهم بعضاً فهناك شيء من الفرقة بينهم دلالة على الخوف في نفوسهم واستلاب الشعور بالأمان ،فوظف التشبيه للدلالة على عدم الاطمئنان في ذلك اليوم.

فقد حقق التشبيه التشابك والتضافر بين أطراف الكلام باعتماده على عنصر المغايرة بين طرفيه وفي ضوء هذه الغيرية تبرز مهارة المنشئ (الخطيب) في ((تحقيق التفاعل بين طرفي الصورة التشبيهية عن طريق التشابك أو التضافر الدلالي الحاصل بين هذه الأطراف، والقدرة على تحقيق هذا التشابك أو التضافر تكشف عن بعد دلالي عميق يكمن في [سعة] ملاءمة هذا التفاعل للجو النفسي العام، ولحال الخطاب من جهة أخرى))[٥٥] وهذا يدل على براعة الإمام وقدرته الكلامية في توظيف الكلام بما يخدم النص.

جدول في أشكال الصور في الخطبة

الصور المرئية	الصور المتخيلة	الصور الوصفية
البسكم الرياش	الجم العرق	عمر مهل المستعتب
خلوا لمضمار الجياد	احاط بكم الاحصاء	اناة المقتبس المرتاد
سناد مائل		استظهر زاداً

المطلب الثالث: مظاهر البديع وابعادها في التنغيم الصوتي والتشكيل الايقاعي:- الإيقاع الذي في الخطبة اعتمد على عنصر التناسب والتوافق والانسجام في النص ومثل هذه الأمور تزخر بها فنون البديع التي لابد أن يتوفر فيها الانسجام والتآلف والتناسب وإلا أصبح ورودها معيباً في النص فهي ((تقوم أساساً على نُظُم إيقاعية تتمثل في عناصر يمكن أن تنضوي تحت مبدأي: التشابه والاختلاف، أو الوحدة والتنوع، كالتقابل والتوازي، والتوازن والتشابه، والتماثل، والتضاد... الخ، كل ذلك من خلال العلاقة العضوية بين الدال والمدلول))[٥٦] وبما أن الإيقاع بصورة عامة يعتمد مبدأ

النظام والترتيب والتقاسم، فإننا نجد هذه الأمور متوافرة في ألوان البديع سواء بالتناسب على المستوى الصوتي أم على المستوى الصوتي الدلالي، إذ إنّ ((العلاقة بين الوحدات الصوتية والتركيبية والدلالية في [أشكال البديع المختلفة] هي علاقة منتظمة على قدر كبير من الانسجام والاتساق))[٥٧]، والإيقاع كما تقدم يقوم على ((وجود علاقة تناسب بين عنصرين أو أكثر، وهو تناسب يقوم على التوافق أو التخالف بين العناصر المتناسبة في مستوى الأصوات والدلالات))[٥٨]. وعليه فالخطبة في إيقاعها قامت على التناسب الصوتي، والتناسب الصوتي الدلالي فضلاً على التناسب العام في النص ككلّ بانسجام الألفاظ وتآلفها مع بعضها الآخر.

١- **السجع:** إذ نجد أن أكثر ألوان البديع التي أكسبت الخطبة إيقاعاً مميزاً هو السجع الموزون والمماثل الذي يعتمد على التناسب والانسجام الصوتي ، إذ يكثر وروده في الخطبة فتأتي الكلمات على الوزن نفسه وأحياناً التقفية نفسها من دون الوزن فتختلف في الدلالة وتتغاير عن بعضها الآخر كما في قوله (عليه السلام) ((أوصِيكُم عبادَ اللهِ بتقوى اللهِ الذي ضَرَبَ لكُم الأمثالَ، وَوَقَّتَ لكُم الآجالَ، وألْبَسكُمُ الرِّيَاشَ،... وأحَاطَ بِكُم الإحصاءِ، وارصَدَ لكُم الجَزَاءَ، واثَرَكُم بالنِّعمِ السَّوابِغِ، والرفد الرَّوافِغِ، وانذَرَكُم بالحُجَجِ البَوَالِغِ، واحصاكم عدداً، ووظف لكم مُدداً))[٥٩] فانظر إلى (الأمثال والآجال والإحصاء والجزاء والسوابغ والروافغ) ترى أن كلّ فقرتين انتهت بكلمتين للوزن نفسه وذلك لأن بها يعتدل الكلام وبذلك التناسب الصوتي يكتسب الكلام تناسباً واعتدالاً بين أجزائه، ولم تأتِ كلها على وتيرة واحدة وذلك لإبعاد الملال ولربط الفقرتين المنتهيتين بالوزن نفسه مع بعض والانتقال إلى الفقرتين التاليتين وبهذا الانتقال من فقرة إلى فقرة هو انتقال من إيقاع إلى إيقاع آخر، وبذلك يُخلق لدينا عنصر التأثير في النص بناءً على العلاقة التي تربط بين الأجزاء التي تؤلف الكلّ فيأتي الإيقاع ليربط ما سبقه بما تلاه بناءً على التناسب الصوتي.

٢- **التعديد:** الذي يعتمد على التخالف الصوتي والدلالي وهذا له اثرٌ في الترابط بين أجزاء النص صوتياً ودلالياً كأن يعدد أوصافاً لما يتحدث عنه. وفي ذلك التعداد بُعدٌ صوتي ودلالي، لأن التعديد في حدّ ذاته يقوم على ((التخالف الصوتي والتخالف الدلالي))[٦٠] فتراه (عليه السلام) عندما يتحدث عن الإنسان التقي الذي يجب أن تقتدي به فيعدد في صفاته قائلاً((تَقِيَّةَ مَن سَمِعَ فَخَشَعَ واقتَرَفَ فاعتَرَفَ))[٦١] ومثله عندما يتحدث عن الدنيا ويعدد أوصافها. فمن خلال التَّعدّد

والانتقال من صفة إلى صفة وكأنها تنقلات محسوبة وبينها وقفات معلومة أكسبت النص بعداً إيقاعياً.

٣- **التشكيل الإيقاعي الناتج من التقابل الصوري:** كما في النص ((كفى بالجنة ثواباً ونوالاً، وكفى بالنار عقاباً))[٦٢] وجدنا أن التقابل الصوري أعطاه إيقاعاً من خلال اعتماد المقابلة على عنصر ((المفاجأ أو الغرابة أو كسر العادة ...[إذ] ينتقل فيها من موقف إلى موقف آخر مضاد، مما يخلق نوعاً من التوتر والنشاط فتنبثق عن ذلك دلالات واسعة وتفتح آفاق الإيحاء والخيال))[٦٣] كما أن الانتقال من معنى إلى آخر يحقق انتقالاً من إيقاع إلى آخر ومن ثمّ تتوازى المعاني.

٤- **المشاكلة التي تعتمد على التناسب وانسجام الالفاظ:** أي مشاكلة الألفاظ لبعضها الآخر، إذ شاكل الإمام بين الفعل واسم الفاعل القائم بذلك الفعل ولهذا آثره الفني الذي يدل على بلاغة الإمام وفصاحته فضلاً عن ما لذلك التلاؤم من أهمية في أنك تجعل من هذا التناسب وسيلة لإيصال المعنى إلى المتلقي من حيث الهداية والاستعانة والتوكل لا يكون إلا على الله وحده ((وأومن به أولاً بادياً وأستهديه قريبا هادياً واستعينه قادراً قاهراً وأتوكل عليه كافياً ناصراً))[٦٤] فلهذا الإيقاع بين الجمل القصيرة الموجزة أثره في أن يجعل المتلقي ينتبه إلى كلّ جملة يقولها الإمام ثم يتعرف على أنه بمن يستهدي وبمن يستعين وعلى من يتوكل، فيكون إيقاعها متجاوباً وطبيعة المتلقي فهو يبدأ العبارة بنغمة خفيفة هادئة ثم تلحقها رنة فيها شيء من علو الصوت من خلال الألف في صيغة اسم الفاعل (هادياً، وقادراً، وقاهراً) وكأنها تنبه المتلقي إلى سبب الفعل المذكور. فقد اعتمدت الخطبة ككلّ على التناسب والتآلف اللفظي والمعنوي في إيقاعها، فضلاً عن تناسبها الصوتي والصوتي الدلالي. فكان الإيقاع في الخطبة متناغماً مع غرضها ومعبراً عنه فالفقرات تميل إلى الإيجاز مع عدم استمرارها على سجع واحد.

الخاتمة:-

أُختتِم البحث بجملة من الملاحظات في أنّ الخطبة متكاملة لفظاً ومعنى، إذ تآلفت التراكيب والصور والإيقاع لدرجة أعطتها لمحة أدبية وفنية وارتقت بها إلى مستوى الكلام الفصيح والبليغ الذي يعكس عقلية قائلها صاحب الفصاحة والبلاغة. فلوحظ في الخطبة أنها لم تأتِ بتراكيبها وصورها على وضعها الحقيقي بل لوحظ فيها ذلك الانزياح الوظيفي والدلالي، فضلاً عن دور

السياق في الكشف عن الدلالات المختفية وراء الألفاظ وعلاقاتها مع بعضها. فبرزت جمالياتها بذلك الانزياح الوظيفي للتراكيب، والدلالي للصور. كما وظفت الصور في الخطبة لاعتمادها على العنصرين الحركي والصوتي اللَّذَينِ يشدّان انتباه السامع ويجعلانه يتفاعل ويتخيل من خلال ذلك العنصر الحركي فيها. كما أنها تعرض الأحداث وتصفها، لهذا تجدها وظفت في الخطبة لتدل على براعة الخطيب وقدرته في توظيف الكلام بما يخدم النص. زيادة على تناسقها العام و الخاص الذي أكسبها إيقاعاً تجاوب معها ومع غرضها وعمل على انسجامها اللفظي والمعنوي.

ويبقى الإمام نبراس وهاج يضيء للعربية الدرب بما يملكه من بلاغة وفصاحة تغنيه عن التعريف. ونسأل الله أننا وفقنا فيما بحثنا فيه وعنه، وهو الموفق وعليه التوكل.

الهوامش:-

١- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، ص٣٣٧.

٢- الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، ص ٥٤.

٣- البيان والتبيين للجاحظ، ص ١٣٨-١٣٩.

٤- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، محمد محمد أبو موسى، ص٢٣٨.

٥- الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، د. تراث حاكم مالك الزيادي، ص١٣٢.

٦- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، محمد محمد أبو موسى، ص٧٧.

٧- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، د. عبد الفتاح لاشين، ٩٢.

٨- م. ن. ٨٠.

٩- نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، شرح محمد عبدة، ج١/ ١٢٧-١٢٨.

١٠- جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، د. حسين جمعة، ص٤٤.

١١- م. ن. ١٤٦.

١٢- م. ن. ١٤٨.

* ينظر المستويات الجمالية في نهج البلاغة دراسة في شعرية النص د.نوفل أبو رغيف ١٤٨

١٣- نهج البلاغة ١٢٢.

١٤- معاني النحو، د. فاضل السامرائي ٢٠٩/٤.

١٥- معاني النحو ٤/ ٢٠٩.

١٦- معاني النحو ٤/ ٢٠٩.

١٧- نهج البلاغة ١٢٣.

١٨- معاني النحو ٢١١.

١٩- الخطاب في نهج البلاغة، إيمان عبد الحسن ٩٠.

٢٠- م. ن. ١٠٠.

٢١- نهج البلاغة ١٢٠.

٢٢- م. ن. ١٢٣-١٢٤.

٢٣- م. ن. ١٢١.

٢٤- م. ن. ١٢٤

٢٥- م. ن. ١١٧.

٢٦- المستويات الجمالية في نهج البلاغة ٢٢٣

٢٧- نهج البلاغة ١٢٥.١٢٦

٢٨- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، محمد أبو موسى ٩.

٢٩- نهج البلاغة ١١٧.

٣٠- خصائص التراكيب ٨٧.

٣١- نهج البلاغة ١١٧.

٣٢- الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطب الفلسفي، د. عمارة ناصر ١١.

٣٣- م. ن. ٢٧.

٣٤- م. ن. ١١.

٣٥- م. ن. ٢٩.

٣٦- نهج البلاغة ١١٧.

٣٧- م. ن. ١١٧.

٣٨- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد ٨٥.

٣٩- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل ١٤٠.

٤٠- نهج البلاغة ١٢٠.

٤١- م. ن. ١١٧.

٤٢- م. ن. ١١٩.

٤٣- عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية، د. مسعود بودوخة ١١٠.

٤٤- نهج البلاغة ١١٧.

٤٥- الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، د تراث حاكم مالك الزيادي ٢٧٨.

٤٦- الإشارة الجمالية في المثل القرآني، د. عشتار داود محمد ٥٥.

٤٧- نهج البلاغة ١٢٠.

٤٨- م. ن. ١٢٠، وينظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديدج٦/٣٤٦

٤٩- نهج البلاغة ١٢٠.

٥٠- م. ن. ١٢٠-١٢٢.

٥١- م. ن.١٢٠- ١٢٢.

٥٢- نهج البلاغة ١١٨.

٥٣- م. ن. ١١٨.

٥٤- م. ن. ١١٨- ١١٩.

٥٥- الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، د. تراث حاكم١٦١- ١٦٢.

٥٦- الأُسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي د. ابتسام أحمد حمدان ٢٨٩

٥٧- عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية، د. مسعود بودوخة ١٢٧.

٥٨- م. ن. ١٣٠.

٥٩- نهج البلاغة ١١٧.

٦٠- عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية، ١٦٩.

٦١- نهج البلاغة ١٢٠.

٦٢- م. ن. ١٦٤.

٦٣- عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية، ١٦٠.

٦٤- نهج البلاغة ١١٦.

المصادر:

١- الأُسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، د. ابتسام أحمد حمدان، مراجعة وتدقيق أحمد عبد الله فرهود، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، دار القلم العربي، سورية.

٢- الإشارة الجمالية في المثل القرآني، د. عشتار داود محمد. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

٣- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة (سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب)، ١٦٤، آب ١٩٩٢.

٤- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج١، ط٤، مصر.

٥- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، السعودية، (ب،ت).

٦- جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، د. حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

٧- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، أميرة للطباعة، (١٤٦٦ هـ - ١٩٩٦).

٨- الدرس الدلالي عند عبد القاهر الجرجاني، د. تراث حاكم مالك الزيادي، ٢٠٠٨، ط١ نشر وتوزيع مكتبة المثقف - بغداد - العراق.

٩- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، محمد محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة -القاهرة-ط٤، دار التضامن - القاهرة، (١٤٠٨هـ -١٩٨٧).

١٠- شرح نهج البلاغة الجامع لخطب وحِكم ورسائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام تأليف عزّ الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله ألمدائني الشهير بأبي الحديد المعتزلي المجلد الثالث ج (٥-٦) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.

١١- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي للولي محمد، ط١، الناشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت،١٩٩٠.

١٢- عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية، د. مسعود بودوخة (عالم الكتب الحديث، إربد الأردن) ط١ ،٢٠١١.

١٣- الفلسفة والبلاغة مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي د.عمارة ناصر ،ط١، مطابع الدار العربية للعلوم - بيروت، ٢٠٠٩.

١٤- اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان- الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٣ الهيئة المصرية.

١٥- المستويات الجمالية في نهج البلاغة دراسة في شعرية النثر د. نوفل هلال أبو رغيف، ط١ ،بغداد، ٢٠٠٨.

١٦- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، ج٤، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١ ٢٠٠٧.

١٧- نهج البلاغة، جمعه السيد الشريف الرضي، شرح محمد عبدة، دار القارئ، ط٢ ،٢٠٠٩.

الأطاريح:-

١- الخطاب في نهج البلاغة دراسة موضوعية فنية (إيمان عبد الحسن علي) رسالة ماجستير، (غير منشورة)، كلية التربية - جامعة بابل ٢٠٠٨.